الرئيس الوزير إدوار هريو
رجل الأدب

بمناسبة زيارته لمصر

للأستاذ عبد العزيز عزت

هناك ثالوث من المعارف لاينفصم أجزاؤه ، إذا تحقق فى رجل كانت له صفة الإنسانية الخالدة ! هـذا الثالوث هو الفلسفة والسياسة والأدب؛ ذلك لأن الفلسفة تصقل الفكر إلى درجة يرتفع بها عن اضطراب مفردات الوجود الجزئية ، إلى نوع من التجريد العقلى تنفذ به القريحة إلى صميم الأصول التى تحدد الأشياء فى جوهرها الدائم ، واقعية كانت أم فرضية . والسياسة ضرب من المعرفة أخطأ مكيافللى فى تعريفها حين قال : « إنها وسيلة للكذب والخداع » ؛ لأنها عند المفكر الأول للبشرية أفلاطون الالهى — إذ استعرنا لغة الفارابى — : هى وسيلة لتحقيق منطق العالم فى مجال عالم الاجتماع الإنسانى ، فيسوده نوع من الانسجام يوجب استقرار النظام فيه ؛ وتتحقق فيه « ذروة » الكمال فتستقيم حياة الإنسان . لهذا كانت السياسة هى بيت القصيد فى فلسفة أفلاطون ، وكانت « المدينة » كنظام اجتماعى — إذا استعرنا لغة فستيل دى كولانج — هى المحور الأساسى الذى تدور حوله فلسفات الإغريق فى العهد القديم . والأدب ، يكفى لتعريفه أن يلقى القارئ نظرة إلى جدول موضوعاته فى مؤخر كتاب العلامة الكبير لانسون عن « الأدب الفرنسى » ليرى انفهاق نواحيه والتى فى صلبها الفلسفة والسياسة ؛ وذلك لأن الأديب يجب أن يعيش لتحقيق فكرة معينة فى مجتمع معين ، وتأكيد مذهب ونزعة واضحة فى الفكر لا يحيد عن دعمها مرة واحدة فى بلد من البلاد ، وإلا كان قلمه رخيصاً لا قيمة لما يسطره فى أسواق الأدب الرفيع ؛ لأن الأدب إذا قام على العجز فى الإبصار والإدراك بمعنى أن يذهب الأديب إلى ترديد « الماضى » دون أن تدفع به عين التفكير فى حركتها إلى الأمام ، كان أدبه مستذلاً تسوده النزعة التاريخية ، لا يبصر قارئوه أبعد من أنوفهم ؛ وإذا نظروا خلال ذلك الأدب لن يروا أمامهم إلا سراباً . وثانياً ينتاب هذا الأدب العجز فى الإدراك بمعنى انعدام الخلق الوطنى فيه ، بأن يعمد واضعوه إلى تقليد الأجانب فى أدبهم معتمدين فى ذلك على الترجمة والاقتباس ، فيكون بذلك أدبا « قردياً » كله المحاكاة والتنافر مع أول إحساسات أهل الوطن ، لأن الأدب كأساس نتاج فكرى يتعلق بالمشاعر والعواطف ، فهو خاص له لون معين يشتق من طبائع الأمم ومميزاتها . (إقرأ كتاب فكتور هوجو وعنوانه « الأدب والفلسفة » وأيضاً ما كتبته مدام دى ستايل عن الأدب والسياسة)

فالفلسفة ، والسياسة ، والأدب ، تتميز بعضها عن بعض ولكنها لاتنفصل ، « كالمثلث » إذا ضاع أحد أضلاعه ، انعدمت وحدة الوجود الهندسى فيه . كذلك « الرجل » بالمعنى الأدبى هو ذلك الهيكل الفكرى الذى تحقق فيه المعارف الثلاث . وليس فى عصرنا هـذا رجل يتمثل فى شخصه ثالوث هذه المعارف الثلاث وانسجامها كالرئيس هريو ، فهو بحق رجل الفلسفة والسياسة والأدب

أما عن فلسفته : فذهب يسعى إليها عند مفكر مصرى هو فيلون الأسكندري الذى جعل منه موضوعاً لكتاب طريف يمثله فى حياته الأولى . وفى دراسته هذا الفيلسوف أكبر دليل على تحقق صفة الرجولة والإنسانية فيه ، لأن فيلون يوحد فى شخصه وفى انسجام تام عناصر فكرية مختلفة النزعات ، فهو يهودى النشأة ، مصري المشاعر ، يونانى الثقافة . هو عالم مستقل بذاته يتوسط بين العالم اليونانى القديم ، وبين عالم التفكير فى القرون الوسطى . ففى دراسته إلمام بما تقدم وما تأخر من

المعارف فى تطور التفكير عند بنى الإنسان حتى ظهور العهد الحديث . وفى دراسته أيضاً توفيق بين الإلهام والعقل وبين عالم الشهادة وعالم القداسة ، وبين الفلسفة والدين ، وبين العقلية اليونانية والعقلية الشرقية . وبفضله أصبحت الأسكندرية العاصرة ، منارة العلم ومنبع النور فى الايمان والتجريد الفكرى . فاهتمام الرئيس هريو بفيلسوف كهذا يدل على مبلغ ما هو عليه من العلم الغزير وسعة الاطلاع ، وحاسة « توحيد ما اختلف » مما ساعده وأهله ليكون رئيساً لمجلس النواب الفرنسى يقيم الانسجام بين ما تباين من نزعات الأحزاب ، وأهواء السياسة ، وجموح مناقشاتها المسيرة ، لتسير فى هدوء إلى سبيل الحق الذى يعلو على شهوات التخصيص الضيق فى أصول الحكم

وهو في كتابه هذا يعرض أولاً لمقارنة يهودية التوراة فى عهد فلسطين بالمعتقدات اليونانية ، ثم مقارنة يهودية الأسكندرية — وكفرع — بنفس تلك المعتقدات الإغريقية ؛ وفى موضع ثالث يتطرق إلى تحليل منهج فيلون وآرائه الثابتة فى مجال الإلهيات ، فيعرض لنظرية التأليه عنده ، وتحديد فهمه لطبيعة الأفكار والأعداد ، ويثبت تأثره بفلسفة الفيثاغوريين ؛ ثم ينتقل بالكلام أو شرح جوهر النفس وتشعب نشاطها ، وعلى الخصوص وصف حياتها « القابلة » التى تتمثل فى انفعالاتها وشهواتها الثائرة المريضة ، ثم يعرض إلى مذهبه فى الأخلاق وطبائع الفضائل وأصول التخلق فى الحياة وما بعد الحياة ، ثم يشرح أخيراً آراءه فى السياسة ، فينقد مبادئ الاستبداد والتزعم الجامح

وأما عن أدبه : فهو أدب بنى على النبل والورع ؛ لم يقصد به فرض وهم فى الزعامة على الأدب فى فرنسا ، لأنه يعرف أن الزعامة تاج يكلل به الناس رؤوس من يتوسمون فيهم أهلية هذه الزعامة ، فهى « تسعى » إليهم ، دون أن تفرض على الناس فرضاً . وعهده الزعامة لم تقم يوماً ما على الغرور الفكرى ، ولا على مهاجمة الناس فى معتقداتهم وأديانهم ؛ ولم يكن التجديد فى الأدب يوماً هو الانسلاخ عن تراث الآباء والأجداد والذهاب لما يمجه ذوق البلاد من التواء وغموض فى التصور عند الفرنجة ، وإنما هو الاقرار بفضل من تقدم من السلف الصالح ، وفهم الحاضر الفكرى فهما يكفل الانتاج العقلى في المستقبل القريب . فبهذا تحفظ روح الأمة ومشاعرها ، صافية من غير امتزاج ، وتسير إلى الأمام فى غير ما ترقيع ولا ابتذال

لهذا ذهب الرئيس هريو إلى أدب قومه ، واختار من بين فتراته حقبة من الزمان هى الحد الفاصل بين نوعين فى الأدب الفرنسى : نزعة المحافظة على القديم التى تتمثل فى أدب القرن السابع عشر الميلادى عند راسين وملير وبوالو ، ونزعة « الإصلاح » فيه عند كتاب القرن الثامن عشر مثل روسو وفلتير ومنسكيو . هذه النزعة الثانية نزعة « حربية » لم تنسجم وطبيعة التفكير الأدبى ، فقضت على الأدب « الرفيع » بثورتها ؛ لأن مجاله أصبح مهزلة لتراشق خطباء الثورة بما يمجه كل ذوق أدبى سليم ، ويأباه كل عُرف فى التصور والتأدب . وفضت عاصفة السياسة على الاستقرار الأدبى ، وحرمته الخضوع لمذهب واحد معين يمثل مشاعر أمة واحدة معينة ، له لونه وصبغته الخاصة ، وأصبحت أقلام الأدباء كسهم الريح فى أعلى المنازل تعصف به الزوابع فى كل اتجاه ، فهى تباع وتشترى بيع الأنقاض فى أسواق السلع البائسة ، تدور وتتذبذب فى سائر الأحزاب ، دون استقرار محدود على مبدأ واحد ثابت لا يتغير

هذه الفترة التى ذهب إليها الرئيس هريو هى مبدأ القرن التاسع عشر ، إذ هدأت عاصفة الثورة الفرنسية بأدبها « الوهمى » وإذ ابتدأ ظهور المذهب الرومانتيكى أى « التخصيص فى الأدب » (بمعنى أن يكون للأديب مسحته الخاصة الغالبة وحريته الكاملة فى تصوير وتسطير ما يشاء ويهوى ، دون أن يخضع مثلاً لقانون الوحدات الثلاث الذى نجده مثلاً عند راسين ، والذى يتأثر هو فيه بتعاليم اليونان ، وخاصة أصول « التراجيدى » عند أرسطو وسوفكليس وأوريبدس فى العهد اليونانى القديم) ، بفضل ما كتبه شاتوبريان ، وعلى الخصوص الشاعر الخالد فكتور هوجو فى « مقدمته » لرواية كرمويل . واختار الرئيس هريو من أدباء هذه الفترة مدام دي روكامييه ، كموضوع لرسالته الكبيرة لدكتوراه الدولة ، ومدام دى ستايل ، كموضوع لرسالته الصغيرة

كانت الرسالة الأولى من الضخامة بحيث طبعت فى جزئين ،

واضطر الرئيس « هريو » أن يعيد طبعها « مخفضة » عند « بايو » لتكون فى متناول كل قارئ مثقف ، بعد أن حذف كثيراً من « الهوامش » التى ما كانت فى واقع الأمر إلا « زينة » فى رسائل مدرسة السربون ، وغرضه الأول فيها لم يقتصر على دراسة هذه الأديبة وتحليل شخصيتها فى ذاتها ، بل كان مع ذلك دراسة الروح العامة للأدب فى ذلك الزمان ، وحل المناسبات الاجتماعية التى ساهمت فى نضوجها الفكرى . وليس أدل على صحة كلامنا من عنوان الرسالة نفسها وهو : « السيدة ركاميه وأصدقاؤها » . والغرض الثانى إثبات أثر مدينة ليون التى ولدت فيها هذه السيدة فى تكوينها الأدبى ، والحياة الأدبية لهذه المدينة خلال ما كتبته

هى عنها فى زياراتها المتعددة لها فى ذلك العهد . والغرض الثالث هو شرح أهمية اتصالها بمؤسس مذهب الرومانتيزم شاتوبريان وما كان له من الأثر فى توجيه تفكيرها الأدبى والسياسى

والرسالة الثانية ، تعرض للصداقة المتينة التى كانت بين السيدتين ركاميه ، ودى ستايل ، واتحادهما فى نزعة العداء ضد مبادئ نابليون بونابارت . فهي رسالة تبحث أيضاً في أدب نفس ذلك العهد وفى نفس الجو الأدبى ؛ غير أنها تمتاز بكونها شرحا لبعض مخطوط لم يطبع حتى ذلك التاريخ ، يوجد في المكتبة الأهلية بباريس فى نحو ٢٩٧ صفحة بعنوان « منتخبات لآراء سياسية » فيها تعرض مدام دى ستايل عن « حلمها » السياسى وهو إمكان تحوير مبادئ الدستور القائم إبان ذلك ، وإحلال جمهورية تثبت على أصول العقل . فى القسم الأول من هذه « المنتخبات » تشرح مبادئ الثورة والشروط اللازمة لتحقيق مبادئها . وفى الجزء الثانى تعرض للأصول العامة العقلية لإمكان تحقيق الجمهورية . وفى القسم الأخير تبسط أهمية أصول العقل فى تغيير الحالة العامة فى فرنسا فى ذلك الحين . فهى بهذا المخطوط تكتب على طريقة أفلاطون فى « جمهوريته » فترسم فرضاً سياسياً وإن كان يسوده الخيال ، إلا أنه مع ذلك يحدد لنا نزعاتها الخاصة فى الحكم ، وكيف أنها تميل فى نزعاتها إلى نوع معين من الديمقراطية لا تبنى مباشرة على مبادئ الثورة الفرنسية بل على أصول التفكير والعقل الخالص

أما عن سياسته : فنقول إن السياسيين فى أغلب أمم الأرض فى زماننا هذا هم أكثر الناس جهلا بالسياسة وأصولها ، وهذا الجهل راجع فى نظرى إلى أن السياسة أصبحت مجالاً للدجل والتهريج لا يطرق بابها إلا أصحاب الفراغ والجدة فى كل شىء . ومن ادعى من رجالها العلم والفهم فى مجالها ، رجع فى علمه وفهمه هذا إلى مفكرى العصر الحديث ، أولئك الذين يشرعون باسم المادة والاقتصاد ، مع أن السياسة عند أهلها من آباء التفكير وخاصة أفلاطون الإلهى ، تقوم على فهم طبيعة الانسان الخاصة وتخلقه . لهذا كانت السياسة هى بيت القصيد فى الفلسفات القديمة وكانت تتضمن دراسة هذا العلم ، ودراسة الآداب ، وعلى الخصوص دراسة الأخلاق ؛ وكان لا يمكن أن يسمى الرجل « سياسياً » إلا إذا بلغ الخمسين من عمره ، بعد أن عرك الحياة ووقف نظرياً وعملياً على طبائع الناس وتضارب ميولهم ، وتباين تخلقاتهم ، وأضاف إلى علمه بجوار منطق العقل ، منطق الحياة . أما اليوم فهى لا تلم إلا « القش » « والرماد » فى كل هيئة اجتماعية من الذين يؤمنون بما يوحى إليهم رجل كمكيافل أن السياسة هى « مكر ولؤم وخداع » ، عوضاً من أن تكون « فلسفة ، وأدبا ، وأخلاقا »

لهذا كان الرئيس هريوليس من المحدثين فى السياسة ، لأنه يسير وتعاليم اليونان القدماء ، فهو لم يتعجل أن يطرق بابها ، فيصيبه ما يصيب أهلها الآن من ابتسامات تقديرية لو فهمها الرجال

منهم لاحت لها وجوههم . فبعد أن مهد لنفسه النضوج الفكرى بثقافة جامعة واقية فى الفلسفة والأدب ، طرق مجال الخدمة الاجتماعية عملياً فى عمادة مدينة ليون ، فأثبت ماهو أهل له من العلم ، وإحكام الادارة ، وتصريف أمور الحياة بين الناس ، حتى إذا كان فى نحو الأربعين من عمره انتخب مباشرة عضواً فى مجلس الشيوخ الفرنسى عن منطقة الرون ، متخطياً مجلس النواب ، فكان أصغر عضو في ذلك المجلس عام ١٩١٢ ؛ ثم تطرق بعد ذلك إلى منصب الوزارة ، ثم إلى رياسة الوزراء ، ثم إلى رياسة النواب ، فكان فى كل مرحلة منها « الفيلسوف العادل » ، « الموحد لما اختلف » . ولعب بجوار ذلك دوراً لا يستهان به فى تنظيم الحياة الداخلية لأمته إبان الحرب العظمى عندما ولاه الرئيس الوزير بريان وزارة الأشغال والمواصلات والمؤونة ؛ ويمكن أن يتصور خطر هذا المنصب ، والقتال قائم على قدم وساق

وباعتباره « عمدة » لمدينة ليون ، يكفى هذا أن يرفع نظر المصريين إليه ، لأن لهم فيها ذكريات تتعلق بتاريخهم فى العهد الحديث . فالرجل الذى قاد الجنود المصرية فى ساحة الوغى ، وأثبت للعالم سمو الروح الحربية عند المصريين ، ووضع أسس الامبراطورية المصرية ، هو القائد سيف Sève أو سليمان باشا الفرنساوى الذى ترك وطنه فى مدينة « ليون » ، بعد انهزام نابليون ، ليعمل لحساب مؤسس الأسرة العلوية الكريمة ، فكان عند حسن ظن محمد على باشا فيه ؛ فحقق ما رسم له خالق مصر الحديثة ومشيد عظمتها . كذلك ساهمت ليون بعلمائها الأعلام وعلى الخصوص الأستاذ لامبير فى خلق مدرسة للفكر فى مصر تتمثل فى ذلك الشباب النابه الذى ورد شرعة العلم من سنين فى هذه المدينة ، والذين أصبحوا الآن من قادة الفكر فى مصر ، فى الفلسفة الإسلامية ، وفى عمادة الحقوق ، وفى بطولة المحاكم المختلطة ، وفى زعامة المحاماة والثقافة . والجميل فى أمر هذه المدرسة ، أن أهلها يعملون على إعلاء كلمة الوطن فى نبل وهدوء وورع ، دون أن يتخذوا من العلم سبيلا وضيعاً لمهاجمة معتقدات أهل البلاد ودينها ، وتصويرها فى حفلات عامة كقبائل المتوحشين لا هم لساكنيها إلا التفكير فى المأكل والمشرب كما يفعل هذا الكثير من متخرجى السربون وجامعة باريس ، وهو ما لا يليق بشباب يدعى الثقافة والفهم ، ومكتوب على جواز سفره أنه « مصرى » ! ؟

عبد العزيز عزت
عضو بعثة الجامعة المصرية لدكتوراه الدولة

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ١٦ —

خرجت من منزل ليلى نشوان ، نشوان إلى حد الجنون . والمرء فى العراق لا يكون إلا فى حالين اثنين : حال تحدثه فيه النفس بالغرق فى دجلة من الفرح ، وحال تحدثه فيه النفس بالغرق فى دجلة من الغيظ . فالمرء فى العراق إما أن يكون سعيداً كل السعادة ، وإما أن يكون شقياً كل الشقاء

وكذلك حال ليلاى ، فهى قد ترقّ وتلطُف فأدخل دارها بُعَيْد الغروب ولا أخرج إلا قُبَيْل الشروق ؛ وقد تقسو وتعنف فتطردنى من دارها بلا ترفق ولا إشفاق

خرجت من منزل ليلى نشوان ، فقد رضيتُ عنها ورضيتْ عنى ، ولكن الحادث الأخير ترك فى القلب عقابيل ، فأخذت أحترس ، وهل يتفق الحب والاحتراس ؟

نعم يتفق الحب والاحتراس ، ولكن يضيع النعيم . فالمحب المحترس يثق بنفسه ، ولكنه لا يثق بمن يحب ... وليلى بدأت تعد ذنوبى ولكن من أى تاريخ ؟ منذ اليوم الذي اطمأنت فيه إلى عودة العافية !

فمن أنا في دنياى ؟ من أنا فى دنياى ؟

لقد كنت أرجو أن تعمى ليلى عن عيوبى ، ولكن هكذا كنت فى حياتى ، فما أذكر أبداً أنى عانيت الظلم إلا على أيدى ناس أحببتهم واستقتلت فى الدفاع عنهم . كنت كالسيف يلقيه صاحبه بعد أن يفله القتال . كنت كالغصن المثمر يؤخذ للوقود بعد انتهاب ما يحمل من ثمرات . كنت وكنت ، فما أشقانى وما أعظم بلائى !

كذلك دار رأسى وأنا ماض إلى قطار البصرة . وما أدرى كيف صاغ الله عقلى على هذه الصورة ، فعقلى لا يغفو أبداً ؛ وهو دائب على الدرس والتحليل ، وليس من الزهو أن أذكر أن أعظم ما يساورنى من المعضلات الفلسفية أهتدى إلى حله فى أحلامى ،